الزعامة
بين علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع

بقلم
الدكتور عبد العزيز عزت

اختلفت النظريات فى الزعامة من ناحية علم النفس الاجتماعى ، ومع ذلك يمكننا حصر الرئيسية منها فى أربع :

أولا : هناك ما نسميه بالنظرية الجسمية .

ثانياً : هناك نظرية القوة النفسية الواحدة .

ثالثاً : ثم تأتى بعد ذلك نظرية القوى النفسية العامة .

رابعاً : وأخيراً هناك ما نسميه بنظرية القوى النفسية الخاصة بطراز معين من الزعماء . وسنشرح باختصار هذه النظريات ثم ننقدها من الناحية الاجتماعية مبينين أوجه النقص فيها . ثم ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن وجهة نظر علم الاجتماع بهذا الصدد ، وهى وجهة نظر مخالفة تمام المخالفة فى أساسها ، وغايتها ، ووسيلتها للاتجاه النفسى ذلك لأن الزعامة أصلا مظهر من مظاهر الوجود الجمعى فهى ظاهرة اجتماعية وليست حدثاً من الأحداث الفردية .

النظرية الجسمية ونقدها :

ترجع هذه النظرية الزعامة إلى أهمية العوارض البدنية فى الزعيم . وسند أصحابها فى ذلك ما يشاهدونه فى عالم الحيوان من أن السيطرة للرئيس ذى القوة فى بنيته . فيصورونه مثلا طويل الجسم ، كبير الحجم ، ثقيل الوزن ، ضخم البنية مما يجعل مظهره كله المهابة والإيحاء بالقوة والمقدرة على الصراع والنضال[1] . فالصورة الجسمية هى مصدر النفوذ وغلبة الفرد على من حوله ، وهم يخضعون له لأنهم يهابون قوته العضلية الغاشمة التى يصح أن تنزل عليهم لسبب من الأسباب ، وهى

(١) Cowin : Executive & his control of men, NewYork 1915, P. 52.

العامل الدافع لهم إلى أن يؤمنوا بما يؤمن به الزعيم من آراء واتجاهات وإلى أن يفعلوا ما يريد وما يهوى تحت تأثر الخوف من بطشه وجبروته . فأصحاب هذه النظرية يحصرون الزعامة فى الرجل كما تنحصر الرئاسة بالفطرة فى الذكر فى جماعات الحيوانات ، ويبعدون المرأة عن هذا الميدان فهى ليست أهلا للزعامة وليست لها المقدرة على التغلب وبسط النفوذ والكلمة والسيطرة والتحدى والبطش ذلك لما يتوهمونه من أن التركيب الجسمى للمرأة أضعف بكثير من التركيب الجسمى للرجل ، فهى بحكم هذا تابعة له وليس لها أن تتزعم لأن طبيعتها البدنية لم تؤهلها للصدارة والقيادة لما فيها من ضعف البنية ونعومة الأعضاء وطراوة الأطراف ، فهى لا يمكنها أن تكون مخلوقاً جارحاً يهجم ويسطو ويعتدى ويأسر غيره بقوته الجسمية . فالزعامة هى زعامة الرجل أصلا لا زعامة المرأة وذلك بالقياس على ما فى عالم الحيوان من أنها للذكر لا للأنثى .

إن هذه النظرية تخلط بين طبائع الأشياء ولا تميز ما للطبيعة الاجتماعية من استقلال تام عن الطبيعة الحيوية الجسمية ، وتفسر الأولى بالثانية عن طريق التشبيه analogy وهى طريقة لا تدرس الأمور على ما هى عليه وإنما كما تبدو بالقياس على شىء آخر يصح أن يخالفه فى طبيعته الذاتية ، فهى من الطرق الضعيفة من الناحية العلمية(١) .فالإنسان ليس بحيوان فقط ، وإنما هو حيوان اجتماعى ، والطبيعة الاجتماعية طبيعة مخالفة للطبيعة الجسمية والنفسية(٢) . والزعامة مظهر من مظاهر الطبيعة الاجتماعية لأنها تفترض قيام جمهرة من الناس من ناحية وفرد تأصلت فيه الروح الاجتماعية من ناحية أخرى(٣) . والعلاقة بين الإثنين ليست علاقة خوف وخضوع لسبب المهابة البدنية وإنما لأسباب أخرى اجتماعية كما سنرى ، ذلك لأن طول القامة وضخامة الهيكل الجسمى وثقل الوزن . . . وغير ذلك من عناصر البنية الجسمية ليست شروط أساسية لخلق الزعماء والقادة . فمن بين هؤلاء الزعماء من كانوا قصار القامة ضئيلى الحجم فى أبدانهم ومع ذلك تزعموا وسادوا فى زمانهم وأخضعوا من حولهم فى داخلية بلادهم وغيرهم أحياناً فى خارجيتها ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر فى العصر الحديث نابليون

---

(١) Ellwood — The psychology of Human Society, New York 1931, P. 460.

Durkheim — Les règles de la méthode Sociologique, Paris 1927, P. 5, 6.

(٢) الدكتور عبد العزيز عزت – رأى فى طبيعة المجتمع البشرى ، مصر ١٩٤٩ ص ١٠/١١ .

بونابارت فى فرنسا ، ودلفوس Doelfuss فى النمسا ، وهتلر وجوبلز فى ألمانيا . . . . إلخ .

لم يعتمد نابليون على فارع طوله فى زعامته لأنه كان قريباً من الأرض لم يعرف جسمه الضخامة والبدانة وإنما مال إلى الرقة والنحافة[١] . وكان له رغم هذه الضآلة الجسمية هيبة عليها كل من عرفه سواء كان ذلك فى مبدأ حياته أوفى أوج عظمته . فعند ما كان قائداً مجهولا وأرسل لقيادة الجيش فى أيطاليا كان عليه العمل مع قواد عسكريين يفوقونه فى صلابة عودهم وضخامة أجسامهم ومع ذلك عرف كيف يفرض نفسه عليهم ويتزعمهم جميعاً من اللحظة الأولى . فكان من بينهم قائد فرقة يسمى أوجرو Augereau عرف بفظاظته وغلظته وخيلائه لما كان عليه من ضخامة الجثة حتى بدا فى محيطه كالدب المفترس ، وكان يستخف بكل من حوله ، ولكن عوارضه الجسمية هذه لم تنفعه فى شىء أمام نابليون عند ما قدم إليه مع غيره من قواد جيش إيطاليا فجلس صامتاً يتأمله ويصغى إلى كلامه ويسمع بأذنيه أمر نابليون لهم جميعاً بالانصراف من حضرته ، ويقر عند انصرافه لزميله القائد ماسينا Massena بأن هذا القائد القصير Ce petit bout de général ملأ نفسه بالمهابة من أول نظرة ويحتار فى تفسير ذلك[٢].

وعند ما اشتهر نابليون بعد ذلك وكبرت عظمته زادت هيبته وبلغت درجة القداسة عند من عاش حوله ، فنجد مثلا قائداً أكثر غلظة ممن تقدم ذكره وهو الجنرال فاندام Vandamme يقول عن نابليون لزميله الماريشال دوراتو D'orano فى سنة ١٨١٥ وهما يصعدان الدرج فى قصر التويلرى Tuileries « ياعزيزى إن هذا الإنسان الشيطان (يعنى نابليون) له فى تأثير بالغ يصعب علىّ فهمه ، أنا الذى لا أخشى الله ولا الشيطان لأننى عند ما اقترب منه اضطرب كما يضطرب الطفل وأشعر أنه لو أمرنى أن أقفز إلى النار من خرم إبرة لفعلت »[٣] . ولقد اعترف لنابليون بهذه المهابة أعداؤه كذلك فكتب القائد الإنجليزى ولزى Wolseley عنه عند ما فرّ من جزيرة إلبا ما يأتى : « إن نابليون يعود إلى فرنسا بمفرده وله صفة الهارب من الجزيرة الصغيرة ، ومع ذلك أفلح فى بضع أسابيع من قلب نظام

(١) Robinson : the Ordeal of civilization, New York 1926, P. 497.

(٢) Gustave le Bon : La psychologie des foules, Paris 1947, P. 88.

(٣) Ibid., 88.

الحكم فى فرنسا بدون إراقة دماء . وهذا بفضل قوة شخصيته العجيبة التى لم تكتب لغيره ! .

كذلك كان الحال عند المستشار النمسوى دلفوس ، فلقد كان قصير القامة نحيف الجسم ، ضئيل الحجم ، هزيل البنية ، ومع ذلك عرف كيف يمد نفوذه على من حوله وتوصل إلى أن يبسط سيطرته على النمسا ويصبح زعيمها الأول الناطق باسمها ، وإلى أن يلعب دوراً هاماً فى تاريخها الحديث[١] . نعم إنه لم يكن قزماً ، ولكن قصره كان واضحاً وتحت المتوسط ، ومع ذلك كانت نسب تركيب جسمه منسجمة ولم تتنافر أعضاؤه وأجزاء بدنه للعيان فكان بهذا قصيراً محكم البناء ، ولقد كان قصره مدعاة لكثير من الدعايات ، فمن ذلك أن رئيس الجيش النمسوى — وعرف جند هذا الجيش عادة بضخامة الأجسام — اعترضته سلحفاة وهو يستعرض رجاله فتخطاها ، ثم تبين بعد ذلك أن هذه السلحفاة كانت دلفوس نفسه وهو يلبس غطاء الرأس الحربى . . . إلخ[٢] .

أما هتلر Hitler فلم يكن بدوره ضخم الجثة ولم تبين هيبته على عوارض جسمه لأن مظهر بدنه كان هزلياً بعيداً عن كل مهابة أو وقار لأنه كان يشبه إلى حد كبير الممثل الهزلى شارلى شابلن[٣] . ثم أن تكوين بدنه لم يجعل منه رجلا خشناً من منظره وإنما تكوّن بعض أعضائه وجعل منه رجلا ناعم المنظر لا يوعز بالخوف والإكبار [٤] . ولهذا تضيع مهابة هتلر كلما اقترب الإنسان منه ، وينعدم تأثيره فى غيره إذا فكر هذا الغير فى تركيب هيكله وبدنه[٥] . وإنما استمد هتلر نفوذه وأكد زعامته عن طريق مقدرته الفائقة على الخطابة وعلى التوجيه ، وعن طريق إخلاصه العميق للفكرة النازية وكفايات بنى قومه وجنسه الآرى[٦] .

ولم يتجاوز جوبلز فى طول قامته مائة وخمسة وستين سنتيمتراً (١,٦٥ سم)[٧] ،

---

(١) Junther — Les pilotes de l'Europe, Paris 1936, P. 225.

(٢) Ibid., 231.

(٣) Ibid., p. 7.

(٤) Ibid., 46.

(٥) Ibid., 50.

(٦) Ibid., 49.

(٧) Ibid., 122.

وكان نحيل الجسم صغير الحجم حتى كان يبدو كالقزم ولهذا قيل عنه إنه « قزم يعيش بين عمالقة » Un nain parmis des géants[١] . وكان بجانب هذا له عاهة ولد بها هى أن أحد ساقيه أطول من الآخر فكان أعرج لا يستقيم فى مشيته ، وعلى الرغم من ذلك كان ساعد هتلر الأيمن فى تنظيم الحزب النازى ، وفى نشر تعاليم النازية فى سائر أنحاء ألمانيا وفى غيرها عن طريق الدعاية والنشر منذ سنة ١٩٢٢[٢] ، وبفضله ومنذ سنة ١٩٢٦ أصبحت مدينة برلين بعد ميونيخ قلعة للحزب النازى بما كان يصدره فيها جوبلز من النشرات وخاصة صحيفة أبخريف Augriff[٣] .

ونحن لا نريد أن نستطرد أكثر من ذلك فى إعطاء الأمثلة التي توضح فى جلاء وبيان أن بنية الجسم وخاصة طولها ، وحجمها ، ووزنها لا صلة لها بالزعامة ولا يمكن أن تكون أساساً صالحاً لقيام الزعماء وفرض نفوذهم على غيرهم من متبعيهم ، فهى أساس واه ضعيف لا سند له من التاريخ أو من الواقع .

ثم أن هذه النظرية تخطىء كذلك عند ما تحصر الزعامة فى الذكور دون الإناث كأن الزعامة كانت وقفاً فقط عليهم وأن الإناث سواء فى عالم الحيوان أم فى عالم الإنسان لم يخلقن للسيطرة والغلبة ، وهذا رأى ليس بصحيح فقد أثبت الأستاذ يركس Yerkes أن الزعامة يصح أن تكون من نصيب الإناث عند بعض الحيوانات وخاصة القردة ، فأنثى هذا النوع لها سيطرتها على الذكور فى موسم الاتصال الجنسى عند ما تهيج الغرائز الجنسية وتشتد الرغبة و التناسل وتزداد الحمية فى أجسام الذكور ، فتجدهم ينجذبون إلى الإناث ويخضعون كثيراً إليهن ويحققون رغباتهن ، ويتمشون حسب ميولهن[٤] .

ويبدو خطأ هذه النظرية واضحاً أكثر فى عالم الإنسان ، فالمرأة لها أهميتها فى المجتمع البشرى وخاصة فى المجتمعات الراقية قديما وحديثاً ، فقديماً نرى جان دارك تتزعم أبناء مقاطعتها فى فرنسا لطرد الغزاة الإنجليز من أرض وطنها ، وتلهم مواطنيها الحماس والقوة والشجاعة حتى اعتبرت قديسة نزلت لهم من السماء لتدفعهم

---

(١) Ibid., 111.

(٢) Idid., 112

(٣) Ibid., 113.

(٤) Yerkes : Journal of comparative psychology, 1940, 30 : 147-186.

إلى التغلب والنصر . فكانت تتقدم جموعهم على صهوة جواد وتحركهم وتقودهم من موقعة إلى أخرى حتى أخرج آخر جندى إنجليزى من أرض فرنسا فى ذلك الحين . ولقد ضربت بشجاعتها أبلغ المثل للتضحية والفداء وحب الوطن لأنها كانت رابطة الجأش عند ما حاكمها الإنجليز وحرقوها فى بلدة روان سنة ١٤٣١ بعد أن باعها لهم الخائن دوق برجاندى[١] ، ولكن هذا الانتقام الرخيص كان من العوامل الفعالة فى تقوية الروح المعنوية وحب الانتقام عند الفرنسيين فلم تغمض لهم عين حتى نجحت قضيتهم الوطنية بطرد عدوهم من بلادهم وهذا بفضل الروح العالية التى بثتها فيهم زعيمتهم الشابة وبهذا كان المنقذ لفرنسا من نير الاستعمار إمرأة وأصبحت تمثل فرنسا بين الأمم فى صورة امرأة[٢] .

وفى العصر الحديث تزعمت مدام كورى Curie فى ميدان إنسانى أعم وأشمل هو ميدان العلم فتوصلت إلى اكتشاف الراديوم الذى كان له أهميته العلاجية فى عالم الطب فقد خفف كثيراً من ويلات بعض الأمراض الخطرة والمزمنة . فكانت زعيمة خالدة فى هذا الميدان العقلى وخلقت لها مدرسة فى فرنسا وفى خارج فرنسا تسير فى هذا التيار الفكرى الإنسانى الذى خلقته بتفانيها فى محبة الكشف عن الحقيقة ورغبتها فى إنقاذ الإنسانية من أمراضها وعللها المؤلمة[٣] .

ومن هذا يتضح أن هذه النظرية الجسمية تخطىء فى تصور الأنثى كأنها أضعف من الذكر من الناحية الجسمية والعقلية ، فجان دارك أمكنها بقوة روحها وخاصة بقوة جسمها تحمل ما تطلبه الشجاعة والتضحية من آلام واضطهاد وتعذيب . ومدام كورى أمكنها بقوة جسمها وخاصة عقلها من احتمال التعب ومشاق السهر وإجراء التجارب فى المعامل وما كان لمادة الراديوم نفسها من أثر فى أعضاء جسمها وتحتمل هذا بصدر رحب فى سبيل الفكرة التى تؤمن بها وهى الوصول إلى الحقيقة وما لها من فائدة لبنى البشر بأجمعهم . كل هذا يدل على أن للمرأة مقدرة النضال الجسمى والعقلى فى الحياة ولا ينقصها عن الرجل شىء إطلاقاً .

ولقد حاول بعض العلماء بخس المرأة حقها من الناحية العقلية والجسمية وتمادى بوجه خاص فى اتجاه هذه النظرية الجسمية التى تبين المقدرة الشخصية

---

(١) Robinson, op. cit. P. 254.

(٢) Michelet ; Histoire de France, dans, Extraits des Historiens français du XIXe siècle, par Jullian 76d. P. 349

(٣) Rostand, et Boutaric — Les sciences, Paris 1933. P. 349, 350.

والزعامة على عوارض البدن وأهمهم الأستاذ بيسكوف Bischoff الأستاذ الشهير في جامعة سان بترسبرج فلقد نشر في سنة ١٨٧٢ بحثاً ضد مقدرة الأنثى الجسمية والعقلية توهم فيه أن هذا الضعف يرجع إلى عامل جسمي محض هو المخ ، فهو يعتبر أن مخ المرأة في وزنه أقل من مخ الرجل. وقد بلغ به الحماس لإثبات صحة نظريته أن أوصى بوزن مخه عند مماته متوهماً أنه سيكون ثقيلا جداً لأنه مخ عالم جهبذ ، ولكن للأسف الشديد عند ما وزن مخه اتضح أنه أقل من متوسط وزن مخ النساء بخمسة جرامات[1] . ومن هذا يظهر خطأ التعصب للذكر فقط سواء في عالم الحيوان أو في عالم الإنسان فالأنثى لها مقدرتها وكفاياتها البدنية والعقلية التي لا تقل في شيء عن مقدرة الذكر ، ومن هنا لا يمكن أن تنحصر الزعامة والسيطرة فقط في الرجل وإنما هي تمتد إلى عالم النساء سواء بسواء .

نظرية القوة النفسية الواحدة ونقدها :

هي نظرية الفيلسوف الفرنسي جبريل تارد[2] . وهي تبين الزعامة على قوة نفسية هي قوة التقليد فيما بين الزعيم وأتباعه ، وتعتبرها الأساس الذي ترتكز عليه سائر ألوان الحياة في المجتمع البشري ومنها الزعامة . ويتحكم في هذه الحياة بعض أفراد تابعين هم الزعماء . وتفرد الزعماء ينحصر في خلقهم لبعض تجديدات لم تكن موجودة من قبل وفهمهم لبعض مظاهر الحياة العامة بشكل خاص ثم تركيز مجهودهم وهمهم في فرضها فرضاً عن طريق التقليد والمحاكاة على غيرهم في المجتمع فيأخذ الناس بها آلياً[3]. فالزعامة عند تارد وظيفة تخديرية

(١) Marion — Psychologie de la femme, Paris 1907, P. 55, 56.

(٢) تشبه هذه النظرية في كثير من نواحيها نظرية العلامة فرويد Freud في الزعامة التي يبسطها في كتابه Group psychology & the analysis of the ego, London 1922. حيث يقرر أن العلاقة بين الزعيم وأتباعه علاقة تنويم وتخدير . وهي نظرية مهمة أثرت في تفكير كثير من علماء النفس الاجتماعي فأخذ بها تقريباً من القدماء لوبون Le Bon في كتابه La psychologie des foules, Paris 1895 في كتابه الذي ظهر لأول مرة في سنة ١٨٩٥ ومكدوجال McDougall The group mind, York 1950 ومن المحدثين يونج P.C. Young في بحثه The nature of hypnosis الذي نشره في J. abn. & Soc. psychol 1928, 22, 372-382 وأيضاً الأستاذ هويلر Wheeler في كتابه The science of psychology, New York 1929.

(٣) Tarde : Transformation du droit, édition Alcan, P. 170.

تتلخص فى مقدرة الزعيم على فرض نفسه على الغير فيتبعونه تلقائياً عن طريق التقليد الذى يخلق منهم تابعين فقط يسيرون وراءه كما يسير قطيع العبيس وراء حاديه . فالزعيم يأتى فى المرتبة الأولى والتابعين فى المرتبة الثانية والعلاقة بينهما علاقة سيد لمسود ، لأنها علاقة تصور الزعيم من المهابة والعظمة ما يكفل سيطرته على الجموع البشرية التى يقودها ، وهو كالشمس التى لا يمكن أن يفتح الإنسان عينيه أمامها ، وهو كالساحر الذى يؤثر تأثيراً مغنطيسياً على متبعيه فيشل حركاتهم ويوقف نشاطهم ليوجههم الوجهة التى يرضاها . فالناس أمامه نيام ولكنهم ليسوا بأموات endormis mais non morts[1] . هم طوع إرادته وتحت إشارته . ولهذا ينتهى تارد إلى تعريف الزعامة بأنها تقليد ساحر وفاتن جذاب C'est une imitation par fascination ؛ وهى حسب هذا التعريف تصبح نوعاً من المرض النفسى ، فهى عدوى نفسية[2] C'est une contagion. تهدف إلى خلق الخضوع والأيمان فى العقل الباطن عن طريق التحذير النفسى والقضاء على إرادات المتبعين وجعلهم فى نوع من الإغماء العملى لا يقدرون فيه على نقاش الزعيم أو مجادلته . فالزعيم يعلو على حساب مريديه وهم أمامه كالأحجار والأخشاب المسندة التى تتماسك من غير وعى للخضوع وتقديس مهابته وعظمته ولرفعه من حيث لا تدرى إلى السماكين .

ويحصر تارد Tarde الزعامة فى الرجال فقط ، فهو عند ما يضرب لها الأمثال يضربها مثلا برمسيس ملك مصر ، والإسكندر الأكبر ، والنبى محمد عليه السلام ، وبنابليون . . . . إلخ ويصفهم بأنهم عباقرة ويصورهم كأشخاص خرافيين لما كان لهم من مقدرة خارقة للعادة فى امتلاك ناصية متبعيهم وإثارتهم متى شاؤوا لأن لهم هيبة سحرية تؤثر فيمن حولهم فيقلدونهم تقليداً أعمى فى كل شىء بكل جوارحهم ويجتهدون فى أن يكونوا صوراً لهم يؤثرون بدورهم فى غيرهم ليصبحوا بالشكل نفسه . . . وهكذا ، وقبل ذلك كالحجر الذى يلقى فى الماء فتنفتح الدوائر واحدة من بعد أخرى ويكبر محيطها فى كل مرة[3] . ويقسم تارد بهذا المجتمع البشرى إلى طبقات بعضها فوق بعض ويخضع الأسفل منها للأعلى .

---

(١) Tarde : Lois de l'imitation, édition Alcan, P. 84.

(٢) Ibid., P. 96.

(٣) Ibid., P. 84. et suiv.

لأن من طبيعة التقليد عنده أنه يقلد الضعيف القوى ، ولهذا كان فهمه للزعامة فهما أرستقراطياً لا يتفق فى شيء مع الروح الديمقراطية ، ويحصر الزعامة فى الطبقات الراقية لأنه يعتبر أن أهل هذه الطبقات ينفردون دون غيرهم بأهلية الابتكار ومقدرة التجديد ، أما سائر أفراد الشعب فهم فى نظره من الدهماء مقلدون ، نعم إنه لا ينكر أن من بين أبناء الشعب من يمكنه الابتكار ولكنه يذكر أن مثل هذا الابتكار مصيره الاحتقار والازدراء وعدم التقدير والانتشار لأن التقليد قلما يذهب من أسفل إلى أعلى . ويعتبر أن تقدم الأمم وارتقائها يرتكز على انحصار الزعامات فى كل باب وخاصة فى العلوم والأديان والفنون الحربية فى أفراد من الطبقات المترفة الأرستقراطية[١] .

يخطىء تارد Tarde عند ما يبين الزعامة على التقليد لأنها ليست ظاهرة فردية ، وإنما هى ظاهرة اجتماعية . وبهذا الاعتبار تخضع للصفة العامة للظواهر الاجتماعية من أنها ملزمة[٢] ، فالناس يشعرون عادة بنوع من الجبر والتحتيم فى أن يخضعوا أحياناً لزعيم معين . وهذا الإلزام لا يأتى من الزعيم نفسه ، فهو ليس بقوة سحرية فردية ، تملى على الناس ، وتفرض عليهم فرضاً وتجعلهم فى حالة تخدير وانقياد ، وإنما مصدر الإلزام هو الجماعة نفسها[٣] ، فهو ينبعث من الروح الكلية ومصدره العقل الجمعى الذى يجعل الزعيم ينساق فى تياره ، ويعبر عنه ، ويكون لسانه الناطق عنه بأفصح بيان[٤] . فليس إذن هناك ثنية أو ازدواج فى فهم الزعامة من وجهة نظر علم الاجتماع وليس هناك جمع من جهة وزعيم من جهة أخرى وإنما الجمع والزعيم شيء واحد . الجمع له إرادة كلية ، والزعيم هو المرآة الصادقة لهذه الإرادة . وهنا ندرك أن ليس هناك تحكم وتجبر من الزعيم قبل الجماعة ، والجماعة ليست كالسائمة أو الانعام يحركها كما يشاء ، وإنما الزعيم هو روحها المجسمة ، فهو منها وهى منه . فهناك تداخل بين الأثنين وهناك انسجام وتضامن لا تنافر وتشاحن وليست هناك أعلى وأسفل فيما بينهما ، فهما من درجة واحدة[٥] . والزعيم لا يشعر بتكليف يثقل على كاهله فى أن يدافع عنها

(١) Ibid., P. 235

(٢) الدكتور على عبد الواحد وافي — اللغة والمجتمع ، مصر ١٩٤٦ ، ص ٣ .

(٣) Durkheim : Règles, P. 7, 15.

(٤) Règles, préface 2e. édition, P. 20, 21.

(٥) Durkheim — Suicide, Paris 1930, P. 115 — 117.

ويقودها من حسن إلى أحسن ، فالإلزام الذى يشعر به نحو جماعته إلزام محبوب Désirable ، لأنه يضعه فى مقام الرأس المدبرة من الجسد ، فهو فى مكان مرموق لا يمثل نفسه فيه ، وإنما يمثل الإرادة الكلية للناس من حوله ، فهناك إذن جاذبية مقبولة فيما بينه وبين قومه[١] . تجعله يعمل من نفسه وبرضائه وفى سرور على التفانى من أجلها ومن أجل رفع اسمها عالياً بين الهيئات والمجتمعات. ومثل هذا الإلزام الجمعى كمثل الضغط الجوى ، فهو موجود ، ولكنه لا يثقل على كاهل الإنسان ولا يشعر به[٢] . وكذلك الزعيم لا يحس بتكليف يرهقه قبل الجماعة ، وإنما يشعر على عكس ذلك بنوع من التضامن Solidarité فيما بينه وبينها[٣] .

ومن هذا نرى أن العلاقة فيما بين الزعيم وأتباعه لا تأتى من أعلى إلى أسفل يكون الإتباع يقلدونه ويسيرون وراءه ، وإنما الزعامة تتجه من أسفل إلى أعلى بمعنى أن هناك روح جمعية تتقمص فى فرد — هذا إذا استعملنا لغة تارد — ولكن فى الواقع ليس هناك أسفل ولا أعلى فى الفهم الاجتماعى ، لأنه فهم ديمقراطى ويبتعد كل البعد عن الإرستقراطية ووضع الفوارق بين الزعماء والقادة من جهة وبين الشعب الجمهور من جهة أخرى ، وإنما علم الاجتماع يضع الإثنين فى مستوى واحد ويربطهما لا برباط التقليد الذى يخفض ويعلى ، وإنما برباط غير فردى هو رباط اجتماعى يوجد بين الأثنين ويجعلهما يكملون بعضهما بعضاً ، هو رباط الإلزام المحبوب[٤] ، بحيث تصبح الزعامة « قالباً » اجتماعياً يلبسه الزعيم فيتلون بلونه ويصطبغ بصبغته ، هذا القالب هو الإرادة العامة التى تتجسم فى الزعيم فينطق باسمها ويعبر عن اتجاهاتها ويفصح عن مراميها ، فليس هناك وجود مزدوج فيما بين الزعيم وأتباعه ، وإنما هناك وجود موحد ، لأن هناك عقل جمعى واحد يربط فيما بينهما[٥] ، هذا العقل هو ذكريات الماضى ومجهودات الحاضر وآمال المستقبل التى تخلق التآمن والتماسك القوى فيما بين الأثنين فتجعلهما شيئاً واحداً[٦] .

---

(١) Règles, Préface 2eéd. P, 20, 21 .

(٢) الدكتور عبد العزيز عزت — آراء فى طبيعة الظواهر الإجتماعية مصر ١٩٤٩ ص ١٤ .

(٣) Durkheim-De La Division du travail social, Paris 1926

(٤) Préface 2 edition, P.20,12.

(٥) الدكتور عبد العزيز عزت — العقل الجمعى مصر ١٩٥٢ ص ١٨ وما بعدها .

(٦) Règles, préf. 2 édit. P, 23.

ومن هنا ليس هناك مجال لنتحدث كما يتحدث تارد Tarde عما يسميه بتخدير الزعيم لأتباعه لأنهم الذين قبلوا أن يتزعمهم فرد معين . فهو عليهم بإراداتهم وهم الذين بدفعونه إلى أن ينساق فى اتجاهاتهم وبرامجهم . ولهذا ليس من سبيل ليكونوا كالأنعام يخضعون له خضوعاً مطلقاً فيكونوا كما يريد تارد مخدرين وآليين يفعلون ما يؤمرون . وإنما الجماعة هى التى تولهم عليها إن صلحوا وأصلحوا وهى التى تناقشهم وتوجههم الوجهة التى ترضاها . وهى التى تعزلهم إن فسدوا وخرجوا عن الحدود التى رسمتها لهم وعن الأهداف التى عينتها وتدعوهم لتحقيقها . فتوجيهات[١] الزعماء وقيادتهم ليست فردية من تصوراتهم الخاصة ولا عكنها ولا تمليها أهواؤهم الذاتية وإنما تشتق من الروح الجمعية والمثل الكلية للناس فى جماعة معينة .

ومصداق هذا أن الزعيم إذا لم يحترم هذه الروح الجمعية ثار الناس عليه وحطموا خططه لأنه لم يعد الترجمان الصادق عن مشاعرهم . فعلم الاجتماع لا يرضى للناس أن يكونوا تابعين كالسائمة والدواب تسير وراء الزعيم بدون فهم أو نقاش ، وإنما هو يقول بالحرية فى مختلف أشكالها سواء للزعيم أو لتابعيه وليس لأحدهم أن يستبد بالآخر لأن كلا منهما متكامل مع الآخر وكلاهما يخضعان لروح واحدة هى الروح الاجتماعية التى خلقتها الماضى ويؤكدها الحاضر وتحركها إلى الأمام آمال المستقبل .

وإذا كان الزعيم بالفهم النفسى عند تارد يبيح لنفسه أن يتجبر ويستبد ، وأن يتأله ويعتبر نفسه من مرتبة أرقى من متبعيه . وأنه من جنس ذهبى وأنهم من جنس برنزى — لو استعرنا لغة أفلاطون — فإن علم الاجتماع لا يقر هذا الاتجاه لأنه يرى أن الزعيم يدين للمجتمع[٢] . فى نشأته . وفى ثقافته ، وفى مركزه الأدبى . فالتربية فى الأسرة لها أثرها عليه فى صباه لأنها تلقنه العادات والعرف والتقاليد ، فتربطه بآداب مجتمعة وبسنن التعامل فيه ، وتخلق عنده الوجدان الأخلاقى ، والروح الاجتماعية بالتضامن مع من حوله فيها لأنه منهم وهم منه . ثم يأتى بعد ذلك أثر المجتمع عن طريق التعليم فى المدارس بمختلف مراحلها فترفع من مستواه العقلى[٣] . وترقى من تفكيره ، وتجعله يعمل على تحقيق المعنى الإنسانى الجمعى

(١) Règles, 126-129.

(٢) الدكتور عبد العزيز عزت — رأى فى طبيعة المجتمع البشرى ، مصر ١٩٤٩ ص ١٨ .

(٣) Règles, P. 15.

فى شخصه ، فيشعر الزعيم بأنه ارتقى إلى مستوى حضارة يكفل له الفهم الواضح ، والتعبير السليم ، والتخلق الفاضل . . . وغير ذلك من المزايا التى لا يبلغها إلا بفضل المجتمع ممثلا فى هيئاته التعليمية والثقافية . كذلك يشعر الزعيم من الناحية الاجتماعية بفضل المجتمع عليه بما أولاه من مهنة معينة يشغلها فيه ، فيؤدى مهمة لها فائدتها بين الناس ولها قيمتها من الصدارة فيما بينهم ، لأنها تمكنه من التعبير عن أهدافهم ومراميهم ، وهذا مركز أدبى عظيم الزعيم مدين فيه إلى الناس لا إلى نفسه ، فيشعر أن قيمته الذاتية تأتيه من الخارج وتخلع عليه خلعاً[1] . فكل قيمته إذن تأتيه من أنه كائن اجتماعى نافع يؤدى خدمات فى هيئة معينة أو فى هيئات متعددة والعمل النافع هو قيمة الإنسان فى المجتمع ، والعمل ظاهرة اجتماعية تتطلب الإحاطة بأصول فنية حددها المجتمع جيل بعد جيل ، والزعامة هى أرقى أنواع الأعمال فى مجتمع القرن العشرين ، لأنها عمل يمس المصير الحيوى للهيئات الاجتماعية والمجتمعات البشرية . ومن هنا يشعر الزعيم أنه ليس ملكاً لنفسه وإنما هو ملك لغيره وأن هذا الغير له الفضل عليه فى رفعه إلى مقامه السامى لأنه رأى فيه المعبر الصادق عن روح الهيئات والجماعات[2] .

أما كون تارد يحصر الزعامة فى الرجال وتعصيها عن النساء فهذا فهم خاطىء لما للمرأة من الكفايات الجسمية والعقلية ، فهى ليست أقل من الرجال من هاتين الناحيتين. فمن الناحية الجسمية نجد المرأة فى الجماعات المتأخرة البدائية تقوم بأغلب الأعمال الشاقة المتعبة فى محيط الأسرة من زراعة إلى طحن للغلال إلى بناء للمساكن ، إلى حمل للمتاع فى حالة الارتحال . . . إلخ .وأن حياة الانتاج عند الإنسان فى مبدأ حضارته قامت على أكتاف المرأة كما تقوم حضارتنا الراهنة فى الشعوب الراقية على الآلة التى هى محور النشاط الاجتماعى كله[3] . أما من الناحية العقلية فقد برزت المرأة فى كثير من أنواع التخصص الفكرى فى العصر الحديث ، فهناك مثلا جورج ساند G. Sand فى القصص ، ومدام ديبورد فالمور Desbordes Valmore فى الشعر ، ولورا باسى Laura Bassi فى الفلسفة ، ومدام كوالسكا فى الهندسة Kowalewska ، وصوفى جرمان Sophie Germain

---

(١) Règles, P. 6.

(٢) الدكتور عزت رأي ص ١٠ — ١١

(٣) Bougle : de la Sociologie à action Sociale, Paris 1931, P. 104, 105.

فى الرياضيات[١] ، ومدام كورى Curie ، فى الطبيعة ، ومدام برونشفيك فى التربية Brunschvig . . . إلخ .لقد نحسن تادر حق المرأة فى الزعامة لأنه من حنابلة الكاثوليك[٢] الذى يتوهمون أن المرأة بوجه عام هى سبب خطيئة آدم فحق عليها التأخر وعليها أن تكفر عن سيئتها أمام أبناء آدم ، ولكن من الناحية الاجتماعية المرأة تكوّن نصف المجتمع فهى عنصر مهم من عناصر تكوينه المرفولوجى أى الخاصة ببنيته ، فإذا أهمل هذا العنصر ولم تفتح أبواب الزعامة أمامها خسر المجتمع كفايات ممتازة قد تفيده كثيراً فى نواحى نشاطه المختلفة ، ولهذا ينزع علم الاجتماع فى هذه النقطة نزعة ديمقراطية ويقول بالمساواة بين الرجل والمرأة [٣] ويقر زعامة المرأة لما لها من الأهمية الاثنوجرافية والتاريخية فمن الناحية الإثنوجرافية نجد أن الفطرة الاجتماعية فى الشعوب المتأخرة البدائية تقول بزعامة المرأة فهى الرئيسة الشرعية فى النظام الأمومى Matriarcat الذى نجده فى بلاد التبت فى أواسط آسيا وكذالك فى شمال شرق بلاد الهند . . . إلخ[٤] . والمرأة من الناحية التاريخية زعامات مشهورة ففى أوروبا مثلا نجد جان دارك ، وفى بلاد الشرق الإسلامى نجد عائشة أم المؤمنين وبنت الأزور ، وغزالة . . . إلخ[٥] .

نظرية القوى النفسية العامة ونقدها :

اختلف علماء النفس الاجتماعى فى تحديد عدد هذه القوى ، ولقد حاول الأستاذ بريت Britt أن يستعرض أهم القوائم التى حددتها فيذكر مثلا أن العلامة البورت Allport يحصرها فى تسع عشر بينما يجمعها برنارد Bernard فى إحدى وثلاثين قوة . ولقد حاول الأستاذ بيرد Bird أن يحصى أكبر عدد منها عند كثير من الباحثين بلغ عددهم نحو العشرين فوجدها تسعاً وسبعين قوة نفسية[٦] ،

---

(١) Marion — La psychologie de la femme, Paris 1907, P. 206, 211.

(٢) Tarde par ses fils, avec préface par Bergson, P.8Collection des grands philosophes)

(٣) Bonglé, op. ci..P.110

(٤) Lowie : Traité de Sociologie primitive, Paris 1935. P. 56 e Suiv.

(٥) الدكتور على إبراهيم حسن — نساء خلدن فى التاريخ الإسلامى نصيب ، مصر ١٩٥٠ ص ٥٩ . ٧٣

(٦) Britt — Social psychology of modern life, New York 1941. P. 277, 278.

أهمها الذكاء فلقد ذكره نحو عشرة من علماء النفس فى أبحاثهم عن الزعامة ثم تأتى بعد ذلك قدرة الابتكار فقد أشار إليها نحو ستة منهم ، ثم يلى بعد ذلك فى الأهمية قوة الإفصاح فى التعبير ، والسجية المرحة فقد قال بها نحو خمسة من الباحثين ثم يعقب ذلك قوة التحمس ، ونقاء السريرة ، والمشاركة الوجدانية والثقة بالنفس ، فقد ذكر كلا من هذه القوى الأربع أربعة من الباحثين . وفى واقع الأمر إن من بين التسع والسبعين قوة ، واحدا وخمسين ذكرت مرة واحدة فقط ، ونذكر من هذه الأخيرة : قوة معرفة الطبيعة البشرية ، وقوة التفرد الذاتى ، وقوة النضج العقلى ، وقوة الذاكرة . . . . إلخ .

ولعل أهم الباحثين فى الزعامة من هذه الناحية النفسية هو الأستاذ تيد[1] Tead . فهو بعد أن يقسم الزعامة إلى أنواع ثلاثة يشير إلى القوى النفسية اللازمة لها وخاصة للنوع الأول منها هو :

أولا : الزعامة عن طريق المجهود الشخصى والكفاية الذاتية ، ويعتبرها أهم الزعامات ، لأنها تأتى من مقدرة شخصية وكفاية ذاتية .

ثانياً : هناك ما يسميه تيد بالزعامة عن طريق الانتخاب ، لأنها تقوم على الاختيار الذى يأتى عن اجتماع كلمة المجموع بوضع الزعيم فى مكان الصدارة ، فهى زعامة ديمقراطية تبنى على الارتياح والرضا الجمعى ، ووضع الثقة الكلية فى شخص معين ليمثل الإدارة العامة لجمع معين .

ثالثاً : ثم تأتى بعد ذلك الزعامة عن طريق التعيين كما عين مثلا الرئيس ترومان فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فهذه الزعامة تمكن تسميتها بالزعامة الرسمية لأن السلطة الحاكمة هى التى تقوم بها لما لها من نفوذ وكلمة مسموعة فى الدولة .

إن فى مثل هذه الزعامات وخاصة فى الزعامة من النوع الأول لا بد من أن تتحقق من الزعيم عشر قوى نفسية هى الدعامة الأساسية فى نظر الأستاذ تيد التى تجعل منه زعيما بالمعنى الصحيح ، وهذه القوى لا يتغلب بعضها على بعض وإنما هى كلها تلعب دورها مجتمعة ، وكل واحدة منها متصلة تمام الاتصال بالأخريات ، وكل قوة لها أهميتها فى ذاتها ، غير أن هذه الأهمية الذاتية تتدرج بالشكل الآتى : يضع تيد Tead على رأس القائمة :

(١) Tead : The art of leadership, New York 1935, P.P. 25ff.

أولا : قوة الجهاز العصبى ، فالزعيم عنده فى حاجة إلى أعصاب قوية من حديد تحتمل صدمات الحياة وتقادمها فى هدوء وعدم اضطراب .

ثانياً : قوة التوجيه ومعرفة الهدف الذى يرمى إليه الزعيم ، والغرض الذى يتحرك نحوه ، والمرمى الذى يدفع بأتباعه إليه ، فهو لا يسير فى الحياة اعتباطاً وإنما يحدد بدقة كل خطوة يخطوها إلى الأمام ، فالإبهام والغموض من أعداء الزعامة .

ثالثاً : قوة التحمس — فالزعيم كى يخطو بنفسه وبغيره إلى هدف معين لا يكفيه أن يقتنع به منطقياً وإنما لا بد له بجانب عنصر العقل والفهم من عنصر الشعور الذى يثير حول كل فكرة هالة من الاخلاص لها والتفانى فى سبيلها ، وبهذا يندفع الزعيم وأتباعه لتحقيقها مهما كلفهم ذلك من تضحيات بالنفس والنفيس .

رابعاً : هناك قوة الصداقة والمحبة ، فالزعيم يجب أن يكون له قوة يسيطر بها على أتباعه ، وهذه السيطرة لا تأتى عن طريق العنف وإنما عن طريق اللين بحيث لا يكون فظاً غليظ القلب فينفض الناس من حوله وإنما يجب أن تقوم زعامته على حسن المزاملة وهى قوة قائد الرأى على ممالك زمام تابعيه بالمعروف واعتبار أنصاره أصدقاء له يودهم ليبادلونه بدورهم المحبة والإخاء .

خامساً : وهناك ما يسميه الأستاذ تيد بعد ذلك بقوة الاستقامة كى يبدو الزعيم فى أعين أتباعه كأنه المثل الأعلى الذى يحتذى به ، وأنه رمز للكمال عندهم ، وهذه هى الناحية الأخلاقية فى الزعيم ، فهو يجب ألا ينحط ويكون مبتذلا فى أقواله وأفعاله وإنما يجب أن يكون موضعاً لتقدير أتباعه باتباعه سنن الفضائل والقيام بفروض الواجبات نحو نفسه ونحو غيره من حوله .

سادساً : ما يمكن تسميته بالقوة الفنية وهى قوة تمكن الزعيم من أن يكون على مهارة فائقة فى موضوع زعامته سواء كان هذا الموضوع سياسياً أم اقتصادياً أم علمياً أم حربياً . . . إلخ ، فالكفاية المهنية والإلمام التام بأصول المهنة والتبريز فيها شرط أساسى من أسس الزعامة ، وبهذا تكون زعامته لا تقوم على الجهل وإنما على العلم والبصيرة العامة .

سابعاً : قوة الحزم بألا يكون الزعيم من أرباب التردد والحزيمة ، وإنما يعرف كيف يقطع برأى حاسم واضح فى مختلف الشئون وأن يثابر فى هذا الرأى حتى يتحقق واقعياً دون خوف ولا وجل إذا ما اقتنع بصحته وفائدته . لأن التردد

وعدم الحزم يصوره بصورة الضعف عند متبعيه فتصغر قيمته عندهم ، ويوهى زعامته فتذهب كلمته فى مهب الريح عندهم .

ثامناً : قوة الذكاء وهى قوة نفسية مهمة لا بد منها للزعيم كى يحل مشكلات الحياة التى تعرض له فى موضوع زعامته ، وهذه المشكلات تتطلب عادة التفكير والتدبر والاستقرار والاستنباط وغير ذلك من العمليات الفكرية التى تخلق مخرجاً سريعاً ومرفقاً من المآزق الحرجة التى يقع فيها أحياناً ويريد التخلص منها وقد يكون فيها أيضاً خلاص متبعيه كذلك . فهى قوة منقذة تكتب التوفيق والنجاح للزعيم وأنصاره فى حل معضلات شئونهم العامة والخاصة .

تاسعاً : قوة الإفصاح وتوضيح ما يبدو غامضاً فى عقول متبعيه ، فالزعيم بهذا هو معلمهم الأول يرسم لهم الخطط للسير عليها ويرشدهم إلى سواء السبيل ، وهذا هو الذى يضع الأسس التى تقوم عليها الزعامة وينشىء التعاليم التى يجب أن يتلقنها مريدوه ، ويحدد السبل المختلفة المؤدية إلى تحقيق هذه الأسس وهذه التعاليم . وهذه مهمة تعليمية شاقة تتطلب قوة ذاتية ، ومقدرة شخصية فى التوجيه والإرشاد .

عاشراً : وأخيراً يحدثنا تيد Tead[1] عن قوة الإيمان ، وهى قوة لا بد منها للزعيم كى تصدر أقواله وأفعاله عن عقيدة راسخة وأمل أكيد يملأ نفسه لتحقيق أفضل الغايات وأكبرها ، فهو عنصر فعال ينزع من النفس تشاؤمها ويأسها ويهبها الثقة فى مستقبل مشرق مزدهر ، وهذه القوة لا تنحصر فى الزعيم نفسه وإنما تفيض وتتعداه إلى غيره من أتباعه فينظرون إلى المستقبل بعين الثقة ويسيرون وراءه وكلهم اليقين بنجاح مبادئه ويطمئنون كل الاطمئنان إلى خططه والأخذ بها فى هدوء واقتناع .

إن أصحاب هذه النظرية يتحدثون عن القوى النفسية حديثاً أدبياً عاماً بعيداً كل البعد عن الروح العلمية الدقيقة ، ولا نجد عندهم الدقة الإصطلاحية التى تعارف عليها علماء النفس[2] ، وخاصة فيما يتعلق بكلامهم مثلا عن القوة العصبية وعن الذكاء وعن الإيمان . . . إلخ . كذلك هم يخلطون فى كلامهم بين

---

(١) Ibid., P.P. 25ff.

(٢) انظر ما كتبه الدكتور يوسف مراد فى مجلة علم النفس عدد (١) يونيو ١٩٤٥ مجلد (١) ص ١٠٠ – ١٠٦ وأيضاً عدد ٢ و ٣ من المجلد نفسه .

العناصر النفسية والعناصر الأخلاقية ، فيتداخل كلامهم فى البابين ، مع أن التمييز واجب من ناحية الدقة العلمية . فلكل موضوع مجال يمحص من ناحيته وهو ما يعبر عنه بالفرنسية Le champs du discours فالزعامة من الناحية النفسية شيء مخالف لدراستها من الناحية الجسمية أو الأخلاقية أو الاجتماعية . . . إلخ . والموضوع الواحد يمكن دراسته من عدة نواح ويجب على الباحث الفصل والتمييز بين هذه النواحى وإبراز الناحية التى سيتخذها أساساً لبحثه ودراسته فلا يخلط بين هذه النواحى لاختلاف طبائعها(١) ، وهذا ظاهر بين فى كلامهم عن قوى الصداقة والمحبة والاستقامة ... إلخ — كما رأينا الواجب توفرها فى الزعيم وخاصة من النوع الأول عند تياد .

ثم إن هذه القوى مهما تعددت وتباينت فهى تنتهى إلى قوة واحدة هى قوة السيادة والسيطرة فهناك إذن تثنية وازدواج فى فهم الزعامة وهذا الازدواج ينحصر فى أن هناك زعيم من ناحية يريد أن يملى إرادته ويتغلب على غيره ويسوق أتباعه سوق الأنعام إلى ما يريد من مآرب وأغراض ، وهناك من ناحية ثانية جمع يسير سيراً اتباعياً لا ينقد ولا يحاول الجدل وإنما يأخذ بما يملى عليه ، ويتحرك آلياً لتحقيق ما يرسم له من خطط وما يوضع له من أهداف . فهناك فكرة السيد والمسود ، والأعلى والمخفض ، وهناك فكرة الآلية والانسياق غير الإدارى فيما بين التابع والمتبوع ، وهذه أسس تخفض كثيراً من قيمة الزعامة ولا تجعلها وسيلة للتحرير وإنما للاستغلال والاستعباد . . .(٢) .

ثم إن هذه النظرية تتكلم عن الزعامة وكأنها سليقة غرست فى نظرة الزعيم منذ ولادته فهى فيه — حسب تعبير أرسطو — بالقوة en puissance ؛ ولا تزال تظهر فيه رويداً رويداً بالفعل en act. ، فهى شيء بالطبع فى بعض الأفراد ركب فيهم تركيباً شاؤوا ذلك أم لم يشاؤوا لأنهم ولدوا وحبتهم الطبيعية بهذه القوى النفسية،فهم لا بد يوماً ما يصبحون زعماء رغماً عنهم . وهذا اتجاه غير سليم فى فهم الزعامة اليوم من الناحية العلمية ، لأن أصحابه ينسون الأثر الاجتماعى الذى يتأثر به الزعماء فى مجتمعهم وخاصة أثر البيئة وأثر التربية . ونحن لا نريد هنا بالبيئة البيئة الطبيعية الجغرافية كالتضاريس والمناخ والموقع الجغرافى . . . إلخ . وغير ذلك

---

(١) Règles, P. 126.

(٢) Ginsberg : The psychology of Society, London 1928, P. 160, 161.

من العناصر المادية ، فليس لمثل هذه البيئة من أثر يذكر فى الزعامة أو غيرها من الظواهر الاجتماعية وذلك لاختلاف طبيعة كل منهما ، وإنما نريد بالبيئة البيئة الاجتماعية(١) . ولعل أهم عناصرها هى الأسرة ، فالأسرة هى المدرسة الأولى التى يشكل فيها الفرد على صورة المجتمع وذلك بتوجيهه الوجهة النفسية السليمة منذ حداثته كتهذيب الانتباه عنده ، وتنظيم الذاكرة ، وتقويم العادات وصقل المخيلة وإبعادها عن الغروض الوهمية التى لا طائل منها ، وتعويده التحكم فى الغرائز ...إلخ وما إلى ذلك من نواحى التربية العقلية التى تشرف عليها الأسرة فى شخص الأم والأب أو الإخوة والأخوات(٢) . وكذلك بتلقينه الأسس الأخلاقية الاجتماعية وخاصة أصول العادات والعرف والتقاليد ، فالأسرة بهذا — وحسب تعبير أوجيست كونت — هى «القنطرة» التى يعبر عليها الفرد أى الزعيم من أنانيته الفردية الذاتية إلى الغيرية ومحبة الناس ، فهى وسيلة فعالة لربط الفرد بالمجتمع . ولهذا هى تلعب دوراً مهما فى تهذيب الأسس النفسية وصقل العناصر الأخلاقية اللازمة للزعيم . ومن هنا ندرك أهمية رعاية الأسرة فى دعم نفسية وأخلاق الزعيم فى نشأته الأولى ، وأن لا فائدة من قواه النفسية التى يحدثنا عنها علماء النفس الاجتماعى إن لم تدعم دعماً قوياً بالعنصر الاجتماعى الذى يرفع من مستواها الفكرى ويجعلها لذلك تتجه إلى محبة الناس وإدراك معانى التماسك والتضامن الاجتماعى(٣) .

وتهمل بعد ذلك هذه النظرية أثر التربية فى خارج محيط الأسرة وهى التربية المدرسية التى يتلقاها الزعيم فى معاهد العلم ودور الثقافة بمختلف درجاتها فى المجتمع ، فالزعيم بوصفه فرداً يولد فى نظر الاجتماعيين وله طبيعتان : طبيعة فردية ذاتية ، وطبيعة اجتماعية جمعية(٤) . وأن الطبيعة الفردية التى يبنى عليها علماء النفس الزعامة تابعة فى الواقع وبما لها من قوى متعددة للطبيعة الاجتماعية . وهذه الطبيعة الاجتماعية عبارة عن « القوالب » التى تلبسها الطبيعة الفردية فى دور العلم ، وهذه القوالب هى نواحى التراث الاجتماعى فى أشكالها المختلفة سواء كانت فكرية أم أخلاقية أم نظم للحركات الجسمية . . . إلخ . فالقوى النفسية الفردية غذاؤها التربية

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافى — الوراثة والبيئة ، مصر ١٩٥٠ ص ١١١ ، ١٢٢ ، ١٢٨ .

(٢) Thomas : L'éducation dans la famille, (nos fils), Paris 1919, P. 119.

(٣) Durkheim : Année Sociologique, T. I, P. 59, 60.

(٤) Durkheim : Education et Sociologie, Paris 1926, P. 49, 50.

الاجتماعية التى تربط الفرد بالمجتمع فى ذاته ، فيشعر بفضل ذلك أنه متماسك ومتضامن معه ، فهى تربية تردد صدى الماضى ، وتثير ذكرياته السارة والمؤلمة ، وتوضح خطط الحاضر وتشرح آمال المستقبل ليتداخل الفرد فى وسطه ومحيطه الاجتماعى العام ، وينعكس العقل الجمعى فى عقله الفردى(١) . وبهذا تعمل القوى النفسية للزعيم فى إطار اجتماعى ولا يمكن أن تكون أساساً فريداً للزعامة لأنها فى حاجة إلى ما يدعمها من عناصر التراث الاجتماعى المختلفة ، فالزعيم لا يخلق نفسه بقواه النفسية وإنما يخلقه المجتمع بما يتجسم فيه من الروح الكلية والقوى الجمعية .

نظرية القوى النفسية الخاصة بطراز معين من الزعماء ونقدها :

تحاول هذه النظرية تحديد شخصية الزعيم بناء على بعض القوى النفسية التى يتميز بها عن غيره من الزعماء ، كالأفكار التى يعتنقها ، والاتجاهات التى ينزع إليها والطباع والعادات السائدة عنده ، وغير ذلك من العناصر النفسية التى تتجمع فيه لتجعل منه فرداً فذاً . وقائداً له سحته الخاصة التى تظهره للناس كشخص فريد فى ذاته(٢) . وأن هذه الشخصية الفذة بمشخصاتها الذاتية النفسية توجد فى الزعيم عن طريق الوراثة . فهى فيه بالولادة ، غرستها الطبيعة فى تركيبه ، والأيام كفيلة أن تبرز هذه القوى وتخلق الزعيم عند نضوجها فيه . وكفيلة كذلك أن تجعل منها دوافع آلية للزعيم ليفرض إرادته وسيطرته على غيره(٣) . فالزعامة لا تكتسب ولا تأتى عواملها من الخارج ولا من المحيط الذى يعيش فيه الزعيم إنما تأتيه من الداخل ، فهى وضعت فيه وضعاً وتظهر تلقائياً عند ما تكتمل عناصرها النفسية فيه ، فهى ترجع إلى التركيب النفسى الذاتى للزعيم(٤) .

ولعل أهم من قال بهذه النظرية هو الأستاذ يونج Jung أحد تلاميذ فرويد Freud المشهورين ، فهو يضع تقسيما ثنائياً للزعماء ، فهم على نوعين : نوع يسميه extrovert أى انبساطى والثانى يسميه introvert أى انطوائى .

---

(١) الدكتور عبد العزيز عزت – مجلة علم النفس أكتوبر ١٩٥١ ص ١٦٩ .

(٢) K. Young : Handbook of social psychology London 1946 P. 148

(٣) Ibid., 153.

(٤) Ibid., P. 231.

الزعماء من النوع الأول لا يهتمون بحياتهم الخاصة ومسائلهم الشخصية وأهدافهم الذاتية وإنما يهتمون بحياة الناس وبأمور العالم الخارجي وبأهداف المجتمع ، فهم يتجهون إلى خارجية نفوسهم أى إلى العالم المادى والاجتماعى ، ولهذا يتميزون بقوة التعبير والإفصاح إلى الغير عن شئونه وشئون الحياة ، ويتميزون كذلك بقوة تحقيق هذه الأقوال أى لهم مقدرة التطبيق والأفعال ، فهم عمليون واقعيون ولا يسبحون فى عالم الخيال والنظر ، ونجدهم عادة فى ميدان السياسة والحروب بوجه خاص .

بينما النوع الثانى من الزعماء على نقيض ذلك يهتمون بالتفكير وتنظيم الآراء ، فهم نظريون يتجهون إلى داخلية نفوسهم لترتيب أفكارهم ووضع الخطط التى يرونها كفيلة لتحقيق مثل أعلى معين يفترضونه افتراضاً . وبهذا هم يبتعدون عن أرض الحقائق وعن عالم الشهادة ويعيشون فى برج عاجى يكتفون فيه بالنظر الخالص وعالم ما يجب أن يكون ، والحقائق لا تتعدى محيط رؤسهم ، وقيم الأشياء تشتق من أحكامهم الذاتية عليها بما لهم من معايير خاصة . فزعامتهم مثالية تجرى وراء رسم آمال لتنظيم العالم والمجتمع وتحسين حياة الناس فيهما ولكنهم فى تنظيمهم وتوجيههم يؤثرون ويحركون ويدفعون ، ولكن إلى أين ؟ هذا ما لا يعرفون واقعياً ، ذلك لأن قواهم الذاتية قوى فكرية خالصة فهم يجيدون التفكير ويتقنون التأثير والإقناع ولكن تنقصهم قوى أخرى هى القوى العملية أى قوى التنفيذ والتحقيق ، ونجد مثل هؤلاء الزعماء فى ميدان الدين والأدب والتربية بوجه خاص .

إن هذا التقسيم المزدوج يتسع بعد ذلك عند يونج Jung لأنه يميز فى كل من النوعين أربع فصائل : فمن الزعماء فى نظره من يعتمد على التفكير ، ومنهم من يعتمد على الشعور ، ومنهم من يعتمد على الحس ، ومنهم من يعتمد أخيراً على الإلهام ، فيكون مجموع ألوان الزعماء ثمانية . ونحن لا يهمنا هنا تفصيل هذا التقسيم فليطلع عليه من يشاء فى كتابه[1] . « الطرز النفسية » ، وإنما الذى يهمنا هو تحديد القوى التى يختص بها الزعماء من النوع الانطوائى . وتلك التى على عكسها عند الزعماء من النوع الثانى الانبساطى ، هذه القوى عند النوع الأول تتلخص فيما يأتى :

أولا : الميل إلى الخوف من البيئة الخارجية ، والبعد عنها ، فكأن هناك حجاب بين الزعيم وأتباعه ، وهو يحركهم من بعيد لا يشخصه عن الطريق المباشر وإنما

(١) Jung : Psychological Types, New York 1922.

بطريق غير مباشر وهذا واضح فى الزعامات الدينية التى لها صفة القداسة فقلما يرى التابعون زعماءهم الكبار ، فالبابا مثلا لا يظهر لمريديه إلا نادراً وفى مناسبات معدودات .

ثانياً : الاعتماد فى التأثير على المشاعر وعلى الإيحاء .

ثالثاً : تعمد الإبهام فى موضوع الزعامة حتى يبقى الناس حيارى وفى حاجة دائمة إلى زعمائهم لعلهم يوضحون لهم ذلك تماماً . فالتوجيه ليس بواضح كل الوضوح فى هذا النوع من الزعامة لأن الوضوح معناه ذهاب صفة القداسة منها .

رابعاً : قوة المنفعة الذاتية وجعل محور التوجيه صالح الزعامة أما صالح الاتباع فى المرتبة الثانية وليس هو بيت القصيد ويأتى بطريق غير مباشر[١] .

وهناك من البحاث من يقسم الزعماء تقسيما آخر ، فمثلا جان دى فين روج[٢] Jean des Vignes Rouges ، يميز بين ثمانية أنواع من الزعماء كل منهم له صفاته النفسية الخاصة فهناك : أولا — الزعيم القاهر الذى تطغى شخصيته على الناس فيخضعون له عن طريق التخدير والتأثير الآلى كأن له قوة خفية تأسرهم وتسيرهم وراءه وكأنهم مخدرين . وهو يفرض نفسه بنفسه عليهم ، معتمداً فى ذلك على قواه النفسية التى أهمها قوة الإرادة وقوة الابتكار والتصور وقوة المخاطرة .

ثانياً : وهناك الزعيم الوقور ، وزعامته زعامة أبوية ، والعلاقة بينه وبين أتباعه علاقة شعورية كلها المحبة والاحترام لأنه يرعاهم ويعمل على قضاء مصالحهم وتحقيق أغراضهم الكلية . ويمثل هذا عادة رؤساء النقابات ، والعمد والرؤساء من الموظفين وأهم صفاتهم النفسية المقدرة على العمل ، تنظيمه ، وقوى التفكير الواضح المرتب .

ثالثاً : وهناك الزعيم المغرى وهو الذى يعرف كيف يبهر سامعيه ويكسب ثقتهم ويضم أصواتهم إليه . وهذا النوع يمثله الزعماء السياسيون الذين يظهرون فى الغالب أيام الانتخابات العامة ، ويمتازون بالقوى بالنسبة الآتية : بمحبة الهجوم والصراع ضد من يخالفهم فى الرأى من الأحزاب الأخرى ، وبالاستبداد فى الرأى وفرضه على غيرهم ، بقوة الذكاء العملية ، وبقوة الحسد والنقمة ومحبة الاعتراض والثورة ، وبقوة المغالطة فى إعطاء الحجج لدعم كلامهم وبياناتهم ، فهم يبالغون

---

(١) Ibid.

(٢) Jean des Vignes Rouges : Devenir un chef, essai sur l'éducation des facultés supérieures et de l'aptitude icau ommandement, Paris 1936, chap. V.

فى كل ما يعرض لهم كى يؤثروا على الغير بأى ثمن كان .

رابعاً : وهناك الزعيم الساحر ، وهو زعيم جذاب يبتسم كثيراً ويخاطب متبعيه عن طريق المشاعر والعواطف ، وهم فى اتباعهم له لا يجدون غضاضة فى ذلك ، وإنما يقبلون زعامته فى ارتياح ورضا لأنه شخصية مرحة وتخلع عليهم كثيراً من السرور والغبطة والتفاؤل . وهؤلاء الزعماء يكونون فى الغالب من رجال الدين ومن الوعاظ الذين يبشرون بالفضائل والروح الإنسانية ، وأهم قواهم النفسية : قوة الذاكرة ، وقوة الإيحاء ، وقوة المرح ، وقوة الحذر مع سرعة فى الحكم على الأشياء بما يناسب مشاعر التابعين .

خامساً : وهناك بعد ذلك الزعيم الماهر وهو الشخص الذى يعرف يتصيد ثقة الناس وخاصة فى الميدان السياسى لمصالحه الخاصة ، فهو رجل وصولى يريد الوصول إلى مآربه على أكتاف الآخرين مستعملا فى ذلك كل الطرق المشروعة وأحياناً غير المشروعة كأعطاء الوعود الكاذبة ونشر الأخبار المبالغ فيها وتدبير المؤامرات فالقيم الأخلاقية نسبية فى نظره وليست لها أهمية كبرى عنده . وأهم صفات مثل هذا الزعيم : الذكاء ، والتفكير المنظم ، وقوة الانتباه ، وقوة الترجيح ومعرفة ميول الناس ، وقوة الابتكار والحيلة ، والضعف الأخلاقى .

سادساً : وهناك الزعيم المنطقى وهو الذى يفكر تفكيراً هادئاً متزناً وينظر إليه متبعوه كأنه رجل عادل يدبر فى صالحهم أجمعين . وهم إن وثقوا فيه فإن ثقتهم تبنى على التحمس له والإعجاب به لما يتخذه من أسس واضحة فى تفكيره ومؤكدة النتائج الطيبة لما فى هذا التفكير من الدقة والتحرى . ولكن هذا التفكير له الصفة النظرية فى الغالب ولا يتحقق واقعياً ويظهر مثل هؤلاء الزعماء فى الهيئات الاجتماعية عند رغبة إصلاحها وتنظيمها بما يكتبون من تقارير وما يضعون من مشاريع لتبديل أحوالها من حسن إلى أحسن وهم يتصفون بقوة التفكير المنظم وبالحكمة وبالفضيلة وبالذاكرة القديمة ولمحبة العمل وقوة الإرادة . . . . إلخ .

سابعاً : وهناك الزعيم الفنى ، وهو الرجل المبرز فى مهنة معينة . فيعرف أصولها تماماً ويبدى مهارة فائقة فيها ويبز أقرانه فيها . واحترامه يأتيه من فنه واجتهاده فيه . ومتبعوه يجلونه لأنه أرقى منهم فى فهم المهنة وأصولها ، ونجد هذا النوع من الزعماء فى سائر المهن خاصة فى الطب والجيش والجامعات . . . إلخ . ويتميزون عادة بسلامة الذوق ، والذكاء ، وصواب الحكم والتقدير ، ومحبة العمل ، وقوة

الصبر والاحتمال ، واحترام النظام .

ثامناً : وأخيراً هناك الزعيم الحالم : وهو الذى يخاطب متبعيه عن طريق الخيلة ، فيخترع لهم أوهاماً يصدقونها وأكاذيب يأخذون بها ، وخرافات يعتقدون فيها ، وأغلبهم ممن خاب فى الحياة الجارية . فيعمدون إلى هذا النحو من الشعوذة والعبث بمشاعر البسطاء والدهماء ، وأغلب دعواتهم شاذة خارجة على أصول السنن الاجتماعية المتبعة ، كمن يدعو مثلا بالنبوة أحياناً أو من ينشر مذهباً إباحياً فى الفن أو والأدب . . . إلخ . ويتميز هؤلاء الزعماء بالقوة الحالمة واتساع الخيال والنزعة الصوفية ، وقوة التنبوء ومحبة معرفة الغيب ، وقوة الإيحاء ، وعدم ثبات الإرادة والميل إلى الأوهام والبعد عن الواقع . . . إلخ[١] .

إن فكرة الطراز الشخصى للزعماء فكرة غير علمية بدليل اختلافها من تفكير إلى آخر ، فهى مثلا على نوعين أساسين عند يونج Jung ، وهى على ثمانية أنواع عند جان دى فين روج ، — كما رأينا — ويصح أن تكون على عدد أقل أو أكثر عند غيرهما . وهذا الاختلاف فى تقسيم طرز الزعماء يدل دلالة واضحة على أنه تقسيم شخصى ، وتصنيف خاص ، فهو يبعد كل البعد عن الموضوعية ، وعن الروح العلمية التى تقول بالعمومية ، لأن كل ما هو علمى عام وصحيح من شخص لشخص ومن مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان[٢] .

ثم إن القوى النفسية التى يتحدثون عنها فى كل طراز من الزعماء شىء وهى يفترضونه افتراضاً من ثبات أفكارهم ولا يقوم على استقرار أو ملاحظة علمية لأن لكل مفكر الحرية الكاملة فى وضع هذه القوى وبالعدد الذى يهواه لا كما يشاء الواقع . وهم يفعلون ذلك لأن الواقع نفسه لا يسمح بتحديد ذلك ، فمن الصعب الدخول فى نفسية هؤلاء الزعماء وتقرير طبائع نفوسهم ، فالطريقة التى يتبعونها فى ذلك طريقة ترجيحية تخمينية لا حتمية ، فهى بهذا بعيدة كل البعد عن العلم الذى يقوم على على الاستقراء والملاحظة الخارجية[٣] .

ثم إننا لو تمعنا فيما يذكرون من القوى النفسية والصفات الروحية نجد بعضها صفات أخلاقية ، ونحن لم نذكرها ولم نشر إليها وخاصة فى حالة تقسيم جان

---

(١) Idid., p. 61-100

(٢) Lalande : Lectures sur la philosophie des Sciences, Paris 1924, P. 13 e

(٣) Ibid., chap. IV.

دى فين روج بطرز الزعماء لأنها لا تهمنا كثيراً هنا ، ولكن ذكرهم لها يدلنا على أنهم يخلطون بين مجال البحث من الناحية النفسية ، وبين مجاله من الناحية الأخلاقية ، وعدم تحديد مجال البحث والحرص عليه ، والاستمرار فيه ، يتنافر — وكما قدمت — مع الروح العلمية . لأن هناك مواضيع معينة يمكن دراستها من نواح مختلفة ، وإذا عرض لها الباحث من ناحية محدودة وجب الاستمرار فيها وعدم خلطها بالنواحى الأخرى والتى من اختصاص غيره ، وهذا كى يقوى الاختصاص والتعمق فى البحث من ناحية واحدة وليُجلى الموضوع تماماً ولا يخفى فيه شىء من ناحية معينة . ولو فعل كل باحث هذا من ناحية تخصصه ، وضحت طبيعة الشىء المدروس بعد ذلك فى جلاء ووضوح من نواحيه المختلفة وهذا ما يقول به العلم وروح التخصص فى وقتنا الحاضر وهذا ما يجهله بعض علماء النفس الاجتماعى(١) .

لهذه الأسباب يلجأ بعض المفكرين الاجتماعيين إلى بناء هذه الطرز على أساس اجتماعى وهو أساس له سند من الواقع هو الهدف الاجتماعى الذى يرمى إليه الزعيم والوظيفة الاجتماعية التى يبغى ملأها فى المجتمع بين الناس . وهم يتغاضون عن ذكر قوى أو صفات نفسية للزعماء ، لأن الزعامة لا تقوم على أساس داخلى نفسى فى هذه الحالة وإنما على أساس خارجى مصدره المحيط الاجتماعى الذى يعيش فيه الزعيم . ولقد حاول كثير من هؤلاء المفكرين تحديد أنواع الزعماء بناءاً على هذا الأساس الاجتماعى ، ولعل أهمهم هو سير وليم مارتن كونوى(٢) فهو يقسمهم إلى ثلاثة أقسام :

أولا : ما يسميه بممثلى الجماهير وهم نوع من الزعماء يعرفون الهدف الاجتماعى الذى تتحرك له الجموع البشرية كمبادىء العدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات ، وفضائل الديمقراطية . . . إلخ . وغير ذلك من المواضيع الخلابة التى تلقى هوى فى نفوسهم ، ولها تأثير فى مجرى حياتهم فى المجتمع فيضرب الزعماء على هذا الوتر الحساس بوضع برامج سياسية واجتماعية تشمل الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه النزعات ، وتصوير النتائج الاجتماعية الهامة التى يصح أن يصلوا إليها بناء على هذا التحقيق ، وعادة يظهر هؤلاء الزعماء فى فترات الانتخابات العامة وقيام الاقتراع العام فهى زعامة ديمقراطية .

---

(١) Lalande: Vocabulaire philosophique, Paris 1928, P. II, P. 738. Règles, PP 120-126

(٢) Sir Conway : The crowd in peace & war, London 1915, chaps. 6, 7, 8.

ثانياً : ما يسميه بمروضى الجماهير وهم زعماء يفرضون أنفسهم على الناس فرضاً ، ويطبعون حياتهم بطابعهم الخاص . فهى زعامة مستبدة غير ديمقراطية تقوم على القوة ، ويصور هذه الزعامة فى التاريخ رجال الحرب الذين فتحوا البلاد ونظموها تنظيما كالإسكندر الأكبر قديماً ونابليون بونابارت حديثاً .

ثالثاً : ثم هناك أخيراً ما يسميه سير كوتزى بأصدقاء الجماهير وهم أولئك الذين يدركون سلفاً ميول الجماهير ونزعاتهم الخاصة فيخاطبونهم حسب مشاعرهم وأهوائهم فتقع زعامتهم عندهم موضع الرضا والقبول . فهناك تماسك وتبادل بين الزعماء من هذا النوع وتابعيهم ، فهم لسانهم الناطق المعبر عن أغراضهم فى الحياة الاجتماعية ، والزعيم فى مخاطبتهم يشتق برامجه وموضوعاته من رغباتهم وميولهم وهو يدرك هذا بما له من قوى الحس الاجتماعى . فيرى — على حد تعبير كوتزى — رغباتهم « تتبخر صاعدة أمامه فى الهواء » وينتهى عادة إلى نتائج « يصبها عليهم صبًّا » . فتبدو عندهم عذبة مستساغة ، ويعطى مثلا لذلك بالزعيم الإنجليزى جلادستون Gladstone ولويد جورج Loyd George[1] .

وجهة نظر علم الاجتماع :

يتضح للقارىء من روح النقد الذى تقدم أن علم الاجتماع من ناحية الأساس لا يبين الزعامة على قوة الفرد سواء كانت هذه قوة جسمية أو قوة نفسية واحدة أو قوى نفسية متعددة ، أو قوى نفسية خاصة بطراز معين لبعض الزعماء — كما رأينا — وإنما هو يعتبرها ظاهرة اجتماعية ، ومعنى هذا أن الزعامة شىء اجتماعى سابق لوجود الزعيم ، وأنها « قالب » موجود فى المجتمع يلبسه الزعيم ، فهى خارجية عن نفسه تأتيه من المحيط الذى يعيش فيه شأن الظواهر الاجتماعية كلها[2] . وبهذا تصبح الزعامة عبارة عن موجة اجتماعية تسرى بين الناس فى وقت معين ومكان معين بخصوص موضوع محدود ويشعر الناس بنوع من الغموض والإبهام فى فهم هذا الموضوع الحيوى بالنسبة إليهم فيتلمسون من يوضحه لهم ، ويفصح عنه بأبلغ بيان[3] . فالزعيم لا يأتى بشىء من عنده وإنما هو المعبر الصادق عن إحساسات

(١) الدكتور عبد العزيز عزت — السلطة فى المجتمع مصر ١٩٤٩ ص ١٥ و ١٦ .

(٢) Règles, P. 9.

(٣) الدكتور عزت — رأى ص ١٠

الجماعات والجماهير ، وهو لا يمثل نفسه ولا يعتمد على قواه النفسية ، وإنما يمثل العقل الجمعى ، ويعتمد على روح الجماعة بحيث يصبح الزعيم شخصاً معنوياً يظهر تلقائياً فى المناسبات الاجتماعية الهامة ليتحمل مهمة القيادة لأن الناس آنسوا فيه مقدرة التعبير عن مراميهم وأهدافهم الجمعية فى وضوح ، فأصبح لسانهم الناطق ، ولهذا ليست الوراثة هى التى تخلق الزعيم كما يتوهم بعض علماء النفس الاجتماعى وإنما هو المجتمع الذى يوجده ويظهره فى المناسبات الاجتماعية الخطيرة(١) .

ومن ناحية الغرض لا تقوم الزعامة على الاستبداد والقوة والخوف مما للزعيم من هيبة وبطش ، وإنما الزعامة من ناحية علم الاجتماع زعامة ديمقراطية لا تتجه من أعلى إلى أسفل أى من الزعيم إلى أتباعه ، من الممتاز إلى العاديين(٢) ، فهو لا يقر الفروق بين الاثنين وإنما يساوى بينهما وهناك تماسك وتداخل فيما بين الزعيم وأتباعه لا ينفصل أحدهما عن الآخر وإنما هما شىء واحد بوجهين ، كعملة النقود بوجهيها اللذان لا ينفصلان . بل يميل هذا العلم إلى أن يجعل الأصل فى الزعامة الجماعة نفسها ، فهى تذهب منها إلى الزعيم(٣) وليس هناك فى هذا الذهاب أوطى أو أعلى وإنما هناك تكافؤ لأن الهدف مشترك فيما بين الزعيم ومريديه فهو فهم وهدفه فى آن واحد وهو هدف كلى جمعى خلق فيما بينهما عن طريق التضامن لما يحس به كل منهما من الروح القومية الغالبة التى تنشط على كليهما وتدمعهما من طريق واحد للوصول إلى غاية واحدة(٤) .

ومن ناحية الوسيلة فالزعامة لا تقوم على الخوف والإرهاب وإنما على الجاذبية ، فليس هناك ضغط من الزعيم على أتباعه . والزعيم لا يتمثل فى شكل قاهر ملزم للجماعة أن يستر وراءه كما يهوى ويريد ، وإنما العكس هو الصحيح ، فالجماعة هى التى تضغط على الزعيم وتهيىء له الجو وتظهره ليميز عن غيره باسمها ، فهو يشعر أنه منساق فى تيار جمعى(٥) ، لا يمكن أن يصده ، ويتحتم عليه أن يحاربه خوفاً من الازدراء الكلى من جهة ، ورغبة فى الصدارة الجمعية التى ترفع من شأنه

---

(١) Le Suicide, 115-117

(٢) Les lois de l'imitation, P. 235.

(٣) Brown: Psychology & the social order, New York 1936, P. 348.

(٤) Règles, P. 6.

(٥) Règles, P. 9

فى أعين الناس من جهة أخرى ، فالضغط الجمعى هنا ضغط محبب إلى نفس الزعيم ولا إكراه فيه لأنه فيه فائدته وفائدة المجموع على السواء[١] . والدليل على ذلك أن بعض الزعامات لها مخاطرها وخاصة الزعامة السياسية القومية فى البلاد المستعمرة حيث يتعرض الزعماء للاضطهاد والنفى والتشريد ومع ذلك هناك من يثبت منهم فى وجه الغاشم المحتل مهما أوذى وكلفه هذا البذل والتضحية فى سبيل الوطن وبين قومه . فهما ضغط المجتمع على الزعيم لتصدر فهذا ضغط ليس بمرهق عنده لأنه واجب عليه تأديته برحابة صدر وبإخلاص وشوق . فهناك إذن جاذبية — كما قدمت — بين الزعيم والجماعة أساسها التضامن والتماسك فيما بين الاثنين[٢] . لاشتراكهم فى هدف اجتماعى عام واحد وهو فى صالحهما معا . ولعل الزعيم سعد زغلول فى مصر هو أكبر من يمثل ذلك . فهو رغم شيخوخته وبسطة عيشه ، أجبره المجتمع المصرى فى فترة سنة ١٩١٩ على أن يتزعم وأنه يقود الحركة الوطنية باسم مصر ، وأن ينقلب من مناصر للإنجليز إلى عدو لهم[٣]. وقد لاقى فى سبيل ذلك كثيراً من الاضطهاد والنفى ومع ذلك لم يتوان عن القيام بواجبه نحو وطنه مهما كلفه ذلك من تضحية ، ذلك لأن هناك جاذبية وترابط بينه وبين الناس من حوله لتحقيق غاية عليا هى الاستقلال القومى .

وهذه الجاذبية من شأنها ألا تقضى على الحرية فيما بين الزعيم وأتباعه فيكون هؤلاء كالأنعام تسير بلا إرادة وراء راعيها ، وتكون إرادة الزعيم هى الغالبة ، فهو الذى يوجههم الوجهة التى يرضاها دون أن يجد من الاتباع جدل أو نقاش . إن الزعامة من الناحية الاجتماعية على عكس ذلك ، هى زعامة ديمقراطية لا استبداد فيها من ناحية الزعيم وتقوم على تبادل الرأى وعلى توجيه الزعيم إلى الطريق السوى الذى ترسمه له الجماعة ، فالعقل الجمعى هنا لا يلغى أمام العقل الفردى للزعيم كما يتوهم بعض علماء النفس الاجتماعى ، وإنما هو العقل الجمعى الذى يسود[٤] ، وهو الذى يوحى إلى العقل الفردى أى الزعيم كيف يسير وكيف يقود وكيف يخطو إلى الإمام . فعقل الزعيم يتصهر فى العقل الجمعى[٥] ، وهذا

(١) Ibid., préf. 2e. édit., P. 20,21.

(٢) Ibid., 23.

(٣) تشارلس آدمس — الإسلام والتجديد مصر ١٩٣٥ ص ٢٢١ .

(٤) Brown, op. cit. P.P. 333-337.

(٥) Education et Sociologie, P. 49, 50.

يسيطر عليه ويصبغه بلونه كى ينطق الزعيم باسمه ولا يحيد عن إجماع الجماعة وينفذ كلمتها بإخلاص[١] . وهذا ليس باستبداد من الجماعة إزاء الزعيم ، لأنه ليس ذاكيان منفصل بنفسه بعيداً عن محيطه الاجتماعى ، وإنما هو شخص معنوى يمثل الروح الكلية . ومن هنا ليس هناك تعارض ولا اختلاف فى الرأى بين الطرفين ، وإنما هناك تضامن بناء على اتجاه واحد فى التفكير فيما بينه وبين أتباعه . والاختلاف إذا نشأ فيما بينهما فهذا شىء عارض ولا بد من أن ينتهيا إلى الوفاق والسير فى اتجاه واحد ، ومن هنا قامت الحرية فيما بينهما[٢] ، فللزعيم أن يوجه وللجماعة القبول إذا شاءت ، ولها بدورها حق الإرشاد ، وله كذلك حق القبول . وإذا قام الرفض من ناحية أحدهما فلهما بعد ذلك أن يتفقا على ما يوحد فيما بينهما للوصول إلى الهدف الجمعى المشترك ، وهذه هى الحرية بعينها وانعدام الاستبداد فيما بينهما[٣] ، فالزعيم لا يقضى على حرية أتباعه كما يتوهم بعض علماء النفس الاجتماعى ، وإنما هى الجماعة التى تبيح له التوجيه كما يهوى فى الحدود التى رسمتها له ، فهى لا تحرم الزعيم من حريته ، وإنما هذه الحرية مكفولة ما دام احترامه لإدارة المجموع[٤] ، ولهذا كانت الزعامة فى أساسها كما قدمت ظاهرة اجتماعية : مصدرها الجماعة ، وهدفها الجماعة نفسها ، ووسيلتها اجتماعية هى الحرية .

ولعل من أكبر أخطاء علماء النفس الاجتماعى بعد ذلك تحدثهم عن الزعامة وكأنها شىء واحد ، يلونه المفكر كما يهوى ، فيقسمه مثلا فى عدد يقل أحياناً ويكثر أحياناً أخرى كما رأينا عند يونج Jung وجان دى فين روج Jean de Vignes Rouges . ولكن علم الاجتماع لا يقر هذا . فالزعامة عنده زعامات ، فهى ليست شىء واحد بذاته ، وإنما هى شىء اجتماعى تتعدد صوره وأشكاله حسب الأوضاع الاجتماعية ، فهو ينظر إليها « بالجمع » لا « بالمفرد » . وهذا التعدد لا يرتكز على تصور المفكر الخاص ، والعدد الذى يعطيه ليس من عنده وكما يهوى وإنما هذا التعدد يشتق من الطبيعة الاجتماعية نفسها . وهذه الطبيعة قسمت

---

(١) الدكتور عزت ، رأى ، ص ١١ .

(٢) Durkheim, Sociologie et philosophie, Paris 1924, P. 106.

(٣) Ibid.

(٤) Règles, préf 2e. édit., P. 23.

منذ زمان أوجيست كونت Auguste Comte — أبو علم الاجتماع فى أوربا — إلى طبيعة استقرارية Statique وإلى طبيعة تطورية dynamique[١] ، غير أن كونت فصل بين هاتين الناحيتين فى فهم طبيعة المجتمع وظاهراته مع أنهما متصلين تمام الاتصال فى كل ظاهرة من الظواهر الاجتماعية[٢] . ومن ضمن هذه الظواهر كما قدمنا الزعامة ، فإذا أردنا حصر أنواعها وجب تحديد هذه الأنواع حسب الطبيعة الاستقرارية ثم حسب الطبيعة التطورية .

لقد تعددت أشكال الزعامة من الناحية الاستقرارية حسب تعدد الظواهر الاجتماعية نفسها ، ولعل أهم هذه الظواهر — كما يذكر دوركيم[٣] — ست هى : الدين ، والأخلاق ، والسياسية ، والاقتصاد ، واللغة ، والجمال . فهناك إذن زعامة دينية ، وزعامة أدبية ، وزعامة سياسية ، وزعامة اقتصادية ، وزعامة فى البلاغة والتعبير ، وزعامة فى مختلف أبواب الفنون الجميلة وعلى هذا النوع من الزعامات تقوم الحياة الاجتماعية فى مكان معين وفى زمان معين . وهى زعامات تبغى التوجيه السليم فتستقر الحياة الاجتماعية فترابط مظاهرها وتخطو إلى الأمام لأن الاستقرار شرط أساسى للنشاط الاجتماعى المنتج الذى يكفل حركة التطور نحو التقدم والارتقاء .

ولعل أهم هذه الزعامات الست اثنتان : الزعامة السياسية والدينية لما لهما من هدف حيوى فى صميم حياة الجماعة . فالأولى توحد بين الناس وتسوسهم لدنياهم ، والثانية تجمع كلمتهم وترفع مستواهم الأخلاقى لآخرتهم . ولأن هاتين الزعامتين مترابطتين تقريباً فى كل العصور ولا يمكن فصل السياسة عن الدين[٤] ، فكل منهما مدعم للآخر لتستقيم حياة الناس فى المجتمع . فقديماً اعتمد الملوك والحكام على الدين فاعتلوا العروش باسم الله وبمباركة الكنيسة ، وحديثاً فى الديمقراطيات ، تعتمد السياسة على الدين فى تقوية الروح المعنوية فى الجيوش ، على التبشير لتحذير نفوس المفتوحين لاستغلالهم[٥] .

(١) A. Comte ; Cours de philosophie positive, Paris 1908, T. éV., P.P. 287-328.

(٢) الدكتور عبد الواحد وافى — الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون وأوجيست كونت ، مصر ١٩٥١ ص ١٥ .

(٣) Durkheim : De la méthode dans les Sciences, Paris 1928 T. é., P. 326.

(٤) Faguet : Le libéralisme, Paris 1902, P. 110 et suiv.

(٥) Siger : Essai sur la Colonisation, Paris 1907. P. 93 et suiv.

وبقدر ما تقوى هتان الزعامتان فى أمة من الأمم بقدر ما يعلو شأنها وتسود كلمتها فى داخليتها وخارجيتها . والمثل واضح فى أكبر أمة وأكبر إمبراطورية معاصرة وهى إنجلترا ، فالسياسية تحترم الدين وتجله والدين من الدعامات السياسية القوية(١) .

أما الزعامات من الناحية التطورية فعددها يتناسب مع تطور الأشكال الاجتماعية . وهذه الأشكال قد تتعلق أحياناً بالمجتمعات المتأخرة البدائية فتتالى بالشكل الآتى : ذاهبة من البسيط إلى المركب : المعشر ، فالعشيرة ، فالاتحاد فالقبيلة(٢) . وقد تتعلق أحياناً أخرى بالمجتمعات التاريخية القديمة . وتتتالى بالوضع الآتى : المدينة ، فالإمبراطورية القديمة فالإقطاع (٣) . وقد تتعلق بعد ذلك بالمجتمعات التاريخية الحديثة فتتالى من الأمة إلى الإمبراطورية الحديثة إلى المجتمع الدولى(٤)

أما بالنسبة للمجتمعات المتأخرة فكانت الزعامة ولا تزال تتركز فى الساحر Le magicien ، لأن الساحر كانت له عدة وظائف هامة وحيوية لها أثرها الفعال فى حياة الناس فى المجتمع(٥) ، فهو طبيبهم الذى يشخص لهم الداء ويصف لهم الدواء ، وهو عرّافهم الذى يكشف لهم عن الغيب وينبؤهم بما سيحدث فى المستقبل ، وهو ملازمهم الأعلى فى الملمات يضع لهم الطرق العملية للخلاص منها عن طريق قوة الأرواح الخفية . . . إلخ ، فالساحر بهذا شخصية اجتماعية لها خطورتها ولها أثرها على سائر أفراد العشائر والقبائل بل وعلى رؤسائهم كذلك فما كان لأحد منهم أن يبتدىء فى عمل أو مشروع معين كالصيد أو الحرب . . إلخ إلا بعد استشارة الساحر . فهو عقلهم الهادى الذى يرشدهم إلى سواء السبيل . ويقوم السحر بهذا مقام العلم والمعرفة عندنا فى الشعوب الراقية(٦) .

أما فى الجماعات التاريخية القديمة ، ففى المدن اليونانية والرومانية مثلا كان الزعيم هو الفيلسوف Le philosophe ، فهو الغاية التى يريد أن يصل إليها سائر

---

(١) Le suicide, P. 160, 161.

(٢) Règles, 102-103.

(٣) ébid.

(٤) Durkheim : L'éducation morale, Paris 1925, P.P. 85-89.

(٥) Hubert et Mauss : Mélanges d'histoire des religions, Paris 1929, P. 140 et Préf. P. XIX

(٦) Ibid., Préf. P. XVIII.

الناس حتى الحكام والملوك منهم ، ومن لم يصل إليها من هؤلاء الأخيرين اتخذ له من أهل الفلسفة مستشارين وهداة كما كان الحال فى أرسطو مع الإسكندر الأكبر وفى شيشرون مع قيصر ، وفى ماركس أوريل الذى وصل إلى مقام الفلاسفة بنفسه(١) . فالفيلسوف هو زعيم الزعماء عند أهل المدن القديمة فى أوربا ، وهو العقل الناضج الراجح الذى يدرك الحكمة التى تحقق السعادة للناس فى المجتمع والسعادة للفرد فيما بينه وبين نفسه ، وهو الذى يرسم الطريق واضحاً أمام الناس فى المدينة ليصلوا إلى الحق والخير والجمال ، فهو إذن الإنسان الكامل الذى يبغى الكمال لغيره عن طريق المنطق والتفكير السليم وعن طريق الفضيلة والفضائل وعن طريق إدراك القيم الفنية الجميلة فى سائر أنواع الموجودات(٢) .

أما فى العهد الوسيط فكانت فى معناها الراقى تمثل فى القديس Le Saint أى فى رجل الدين الذى يعيش لآخرته ولا يسعى وراء شهوات البدن ومغريات الحياة وأطماع الدنيا ، ولهذا كان المقام الأول فى المجتمع للزعامة الدينية . وكان رجال الدين يكونون الطبقة الأولى التى تسبق فى ترتيبها طبقة الملوك والحكام(٣) ، وكان لها نفوذها المؤكد الفعال فى حياة سائر الطبقات ؛ فهى التى تأمر بخضوع المستضعفين للأقوياء وهى التى تخضع لها هؤلاء جميعاً ليسيروا حسب تعاليمها . وبلغت هذه الطبقة من القدرة والقوة فى ذلك العهد أن سخرت الفريقين الملوك والرعايا لإفناء أنفسهم فى سبيل الدين بأثارتها الحروب الصليبية ضد الشرق لمدة دامت طويلا وبذلوا فى ذلك كل غال وثمين من الأنفس والمال والزاد والمتاع فى سبيل الدين وتحت تأثير رجاله وزعمائهم(٤) .

أما فى المجتمعات التاريخية الحديثة فى أوروبا فقد تحرر الناس بفضل حركة النهضة وحركة الإصلاح من النفوذ الدينى ، وظهرت القوميات منذ القرن السادس عشر ، وحكم ملوك أقوياء وجهوا الشعوب الأوروبية(٥) . وقووا كيانها واتخذوا

(١) Bréhier ; Histoire de la philosophie, Paris 1927, II, Vol. II, P. 428.

(٢) Bouglé, Bréhier, Delacroix... Du Sage Antique au citoyen moderne, Paris 1921 P.P. 5-57.

(٣) Ibid., 57-117.

(٤) Ogburn & Nim koff : A handbook of Sociology, London 1947, P. 211.

(٥) Robinson : The ordeal of civilization, New York 1926, P. 114.

(٦) Lucas : A Short history of civilization, New York 1943, P. 519, 512, 582.

لمساعدتهم فى مآرب حكمهم وتنفيذ سياستهم طبقات من النبلاء والأشراف ؛ فكانت الزعامة تتركز فى هذه الأرستقراطية الحاكمة فكان الزعيم هو السيد Seigneur الذى يمتاز بالغنى وحب الفروسية وميله إلى الترف وغير ذلك من مظاهر الحياة التى سادت فى الدول الملكية التى سبقت قيام الثورة الفرنسية فى أوروبا(١)

ولكن بعد هذه الثورة دالت دولة الملوك والأمراء والنبلاء والأشراف . . . إلخ . وغير ذلك من العناصر التى كانت لها السيادة المتوارثة(٢) ؛ وقامت عوضاً عنها زعامة الكفايات من أهل البلد الواحد فكان محور الزعامة هو الوجود القومى وأن الزعيم هو مواطن صالح كبير Un grand Citoyen ، وكبره يأتى من أنه يملأ وظيفة فى المجتمع عن جدارة واستحقاق فزعامة تخرج من مجهوده وكده وكفاياته الممتازة لا من حبه ونسبه وجاهه وغناه . . . إلخ . فالزعامة فى هذا الطور لم تقم على الوراثة والمولد وإنما على المجهود الخاص الذى يبذله الزعيم فى سبيل الجماعة سواء كانت هذه الجماعة هيئة من الهيئات كالأسرة أو المهنة . . . إلخ . أو الجماعة بالمعنى العام أى المجتمع بأسره(٣) .

ثم تطورت الزعامة فى العهد المعاصر نحو أفق اجتماعى أوسع وأشمل وهى الزعامات الدولية التى لا تنحصر فى محيط اجتماعى ضيق محلى أو قومى ، وإنما إلى محيط يتخطى حدود الجهة الواحدة أو البلد الواحد إلى بلاد متعددة . فهناك من الزعماء من يدعو مثلا إلى تكوين وحدات إقليمية تتحد فى مصالحها المشتركة ، وتوجه شئونها الاجتماعية وجهة واحدة تحقق ما لها من مصالح مشتركة . وهناك من يدعو إلى قيام حكومة أوروبية واحدة بناء على نظام اتحادى فدير الى(٤) . ومنهم من يقول بسيادة الرأسمالية والروح الدولية internationalisme ، ومنهم من يقول بسيطرة الزعامات اليسارية المتطرفة وبالروح العالمية Cosmopolitisme إلخ . وهذه دعوات(٥) لها رجالها الذين يتزعمونها فى السر والعلانية لطبع حياة الأمم بطابع خاص غالب ، ولعل هذه الزعامات وهذه الدعوات هى التى تسبب اضطراب العالم الذى نعيش فيه الآن فى أواسط القرن العشرين ، تنحى فى حرب باردة .

(١) Du Sage, P.P. 117-195.

(٢) Barnes : Social institutions, New York 1942, P. 212.

(٣) Du Sage, 195-245.

(٤) De Jouvencl : Vers les Etats - Unis d'Europe, Paris 9130.

(٥) Lloyd : Democracy & its rivals, London 1940, P.P. 41ff, 158ff.

وتعمل الأمم بسببها على التسابق فى التسلح وتسخير العلم فى سبيل الوصول إلى مخترعات ومبتكرات مهلكة فتاكة كالقنبلة الذرية والهدروجينية . . . إلخ . ولقد أخذت تقوى هذه الزعامات وهذه الدعوات منذ سنة ١٩٠٧ فقال بذلك بتلر Butler مدير جامعة كولومبيا بأمريكا الشمالية ثم الرئيس ولسن ثم الرئيس روزفلت ثم تشرشل فى إنجلترا . وهذا فى المعسكر الغربى ، والمعسكر الشرقى فى هذا الميدان كذلك رجاله . والصراع لا يزال قائم على تكييف الدعوة والزعامة الدولية حسب المبادىء الخاصة لكل دولة من الدول المعاصرة(١) .

ومجمل القول إن الزعامة لا تقوم على أساس جسمى فيفرض الزعيم بما له من هيبة بدنية وقوة عضلية إرادته على غيره ويسير أتباعه وراءه سير الأنعام دون أن تكون لهم حرية فى مناقشته . وهى لا تبنى كذلك على قوة نفسية خاصة بقهر متبعيه وتسحرهم وتضطرهم إلى الخضوع له فى شكل تحذيرى كما يتوهم تارد ومن نحا نحوه . وهى لا ترتكز على قوى نفسية عامة تتجسم فى الزعيم فتجعل منه قطب الرحى فى حياة الناس بما بفضلها تفوقه عليهم وتجعله فى مقام أسمى وأرقى من متبعيه فيأتونه فى مرتبة أحط ومقام وضيع . وهى بعد ذلك لا تقوم على قوى نفسية خاصة بطراز معين من الزعماء ، يولدون بها وتعمل الوراثة على تأكيدها وبظهرها تطور حياتهم الذاتية فتتحقق الزعامة فيهم فعلا بعد أن كانت فيهم كامنة بالقوة . إن كل هذه فروض فلسفية خاطئة ولا تصور لنا الزعامة فى طبيعتها الحقة ، كما رأينا ذلك فى نقدنا لها كلها . وإنما الزعامة فى الواقع الأمر ظاهرة اجتماعية ، تنشأ تلقائيا فى المجتمع ، ويلبسها بعض الأفراد من الزعماء بإرادة المجتمع ، فهى سابقة لظهورهم ، وهى بعد ذلك تهدف إلى غرض جمعى يربط فيما بين الزعيم وأتباعه برباط كله التماسك والتضامن دون أن يستبد أحدهما بالآخر ، فهى تقوم أصلا على الجاذبية وعلى الحرية . وهى كذلك ليست بشىء واحد يتعدد حسب تصورات المفكرين النفسانيين ، وإنما هى زعامات تتكاثر حسب طبيعة الظواهر الاجتماعية وحسب أشكال المجتمعات البشرية . فهناك زعامات استقرارية تتعلق بحياة الناس فى زمان معين ومكان معين أهمها الزعامة السياسية والزعامة الدينية ، وهناك زعامات تطورية حسب تسلسل أشكال المجتمعات . وهذه المجتمعات قد تكون إما متأخرة ، وإما تاريخية قديمة ، وإما تاريخية حديثة . فالزعامة فى المجتمعات الأولى تتركز فى

(١) Ibid., P.P. 45-57.

الساحر وفى الثانية تنحصر فى الفيلسوف الحكيم وفى القديس من رجال الدين ، وفى الثالثة يمثلها السيد الشريف فى الملكيات فيما قبل الثورة الفرنسية وفى المواطن الكبير فيما بعدها ثم فى الزعيم الدولى الآن ، وبهذا نرى أن الزعامة زعامات وهى اجتماعية فى أساسها وفى هدفها وفى وسائلها ، فهى ظاهرة من ظواهر الاجتماع قبل أن تكون ظاهرة من ظواهر النفس الفردية .

عبد العزيز عزت